

# المفاهيم النفسية الأساسية في القرآن الكريم وخطورة الإصطلاح

للمستاذ الدكتور حسن الشرفاوى

رئيس قسم الفلسفة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



## مقدمة

لأشك في أن القضايا التي يدعو ( المعهد العالى للفكر الإسلامى ) لمناقشتها في هذه الندوة ، قضايا على جانب كبير من الأهمية .. خاصة وأنها تأتي في الوقت لذي انبهر فيه الكثيرون بالتقدم التكنولوجى في العالم الغربى ، فاعتمد المستغربون أن التقدم في مجالات العلوم المختلفة إنما يكون بتطبيق النظريات الغربية ، حتى في العلوم الحياتية والسنوكية ، ولم يمتدوا الى أن التقدم في العلوم المسخرة لشيء ، وأن المنهج في العلوم الحياتية — كالأخلاق والتربية وعلم النفس — شيء آخر .. كما قال عز من قائل : « لكل جعلنا منك شرعة ومنهاجا »<sup>(١)</sup> .

ولما كان الإسلام هو منهجنا الذى جعله الله لنا ، فإن الأساس الذى تهدف اليه شريعتنا في تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، هو تحقيق الوسط العدل<sup>(٢)</sup> ، سواء في الفكر أو السنوك أو الأخلاق .. فقد أمرنا الله عز وجل باتباع صراطه المستقيم ، الذى هو الخير الفاضل والعدل ، فقال تعالى :

• وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط .. المائدة/٤٢

• وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. البقرة/١٤٣

• ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. الاسراء/٣٩

• وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين .. الاعراف/٣١

ولا يقوم منهجنا الإسلامى على الفكر الذائق واتباع هوى النفس ، وإنما يستمد من الهدى الربانى واتباع ما أمر به الحق تعالى في كتابه العزيز وفي سنة نبيه . فهو منهج رأسى أبقى ، يقوم على الاستمداد من منابع الحكمة الإلهية ، وذلك هو الجانب الرأسى . ثم النظر الى حقائق الكون والنفس على ضوء الامداد الربانى

(١) سورة مائدة . آية ٤٨

(٢) جمع هو منهج إسلامى صريح ٣١٠ وما بعدها

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وذلك هو الجانب الأسمى من المنهج .

ومن هذا المنهج الإلهي ، تبرز فضيلتنا اليوم ، حول تعدد المفاهيم الأساسية في مجال النفس الانسانية .. لأن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربي ، الذى يهددها بالوقوع في الاجتهاد الدائى والتأويلات الفردية التابعة من الهوى والظن .. وأن الظن لا يقضى من الحق شيئا .

وتتضح المفاهيم النفسية الأساسية ، من خلال المنظور القرآنى لحقيقة النفس الانسانية .. وليس من خلال نظريات فرويد أو غيره والتي تقوم على فكرة الصراع وتكوين الشخصية في السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل<sup>(١)</sup> ، وليس من خلال فكرة اللاشعور التى جعل منها اليهود ضربة موجبة لعقل الانسان وإرادته الواعية<sup>(٢)</sup> ، وليس من خلال قدرة الحتمية النفسية التى جعلها علم النفس الغربى كميثاق مفروض وقدر محتم لا يستطيع الانسان منه خلاصا<sup>(٣)</sup> . فقد اتضح أن علماء النفس الغربيين لا يدرسون النفس ، وإنما يدرسون السلوك النفسى فحسب ، ولهذا فإن معارفهم حول حقيقة النفس الانسانية وأوصافها وخصائصها ، هى مجرد دراسة متواضعة للمظاهر النفسية تعتمد على التخمينات والاجتهادات الذاتية .. أما علم النفس الإسلامى ، فهو يستقى من كتاب الله ومن هدى النبوة ، وشتان بين نبع الحكمة الإلهي وبين شطحات الفكر الدائى .. قسى حين يقول عز من قائل ( ونفس وما سواها ، فأنمها فجورها وتقواها ) يقول اصحاب مدرسة الشخصية والتحليل النفسى ، وعلى رأسهم فرويد أن القانون الذى يحكم ديا النفس هو قانون الغاب ، الذى يقرر أنه اذا لم تتدرب أكلت الذئاب<sup>(٤)</sup> .

(١) د سموند فرويد : النوجر في التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على ص ١٦٦ . ١٦٧

(٢) د ميرى جرحس : التراث اليهودى الصهبرى من ١-١٥

(٣) د سيد غيم : سيكولوجية الشخصية ص ٢٨-٤٣

(٤) د. حسن الشرفاوى : بحر علم نفسى إسلامى ، ص ٢٢

وق الوقت الذي يلقي فيه عدم النفس الغرني محنته الكبرى التي عبر عنها  
 ايزنك Izink بقوله : ان معدل شفاء العصائير ثابت فعليا ، سواء عولجت  
 بأساليب العلاج النفسي المعروفة أو تركوا دون علاج . في هذا الوقت هدانا الله  
 لاستكشاف موضوعات علم النفس الإسلامي الذي يقوم على مفاهيم راسخة  
 للنفس الانسانية ، وردت في كتاب الله وفي أحاديث الرسول ﷺ فكانت المنهج  
 الذي اتبعه الحكماء من أئمة هذه الأمة من أمثال الحكيم الترمذي والمحاسبي  
 والامام الغزالي وغيرهم كثير ، فاتضح لنا أن علم النفس الإسلامي لا يكتفى فقط  
 بعلاجات الاضطرابات النفسية ، بل هو أيضا ( علم وقائى ) يحول دون وقوع  
 هذه الاضطرابات أصلا ، بما يشير اليه من تحقق الأمن النفسى بالرجوع الى  
 صفاء الإيمان .. فكانت حصيلة هذه الدراسة ، كتابنا ( نحو علم نفس  
 اسلامى ) الذي لقي قبولا واهتماما واسعا ، وتواترت بعده كتاباة عدة في هذا  
 الميدان الرحب من ميادين الثقافة الاسلامية .

### المفاهيم النفسية والاصطلاح :

يذهب بعض المفكرين الى انكار أهمية الاصطلاحات ، ويقولون عبارة مشهورة  
 تتردد كثيرا في كتاباتهم وأقوالهم ، تقول العبارة ( لا مشاحة في الاصطلاح ) حتى  
 كادت هذه المقولة تكون احدى مبادئ البحث العلمى .. لكننا من جانبنا  
 نرفض هذا المعنى بشكل قاطع ، فالاصطلاح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة  
 معينة في الاذهان ، وهذه الدلالة بدورها ترتبط بالكثير من المفاهيم المتداخلة مع  
 الاصطلاح .. فاذا كان هذا الاصطلاح يتطوى على خلل معين في التصورات ،  
 انتقل هذا الخلل الى بقية المفاهيم .

ولذلك فقد أردنا طيلة السنوات الماضية ، أن نضع مجموعة من الاصطلاحات  
 المرتبطة بالمفاهيم الأساسية في الكتاب والسنة ، حتى نتقى الوقوع في مخاطر  
 الاصطلاح الغريبة التي تلفقها بعض المستغربين من الفكر الغرني دون تمييز ،  
 فكانت لهذه المصطلحات الغريبة أثرها الكبير في تضليل الفكر .

(١) ايزنك : الحقيقة والوعم في علم النفس ، ترجمة غبرى حفنى من ١٥٨ .

ولما كان موضوعنا اليوم مرتبطا بالمفاهيم النفسية ، فسوف نقتصر على عرض بعض الاصطلاحات الخاصة بعلم النفس الإسلامي ، مع مقارنتها بالمصطلح الغربي .. حتى يتضح بذلك الفارق بين المفهومين :

#### ١- الزاجر .. لا الضمير :

اصطلاح الضمير ، بشقيه النفسى والاخلاقى ، مأخوذ من كلمة Conscience وليس له أصل فى الشريعة الإسلامية .. وقد تسبب هذا المصطلح فى العديد من أخطاء البحث فى العلوم النفسية والتربوية ، لما ينطوى عليه من غموض<sup>(١)</sup> . ونظرا لهذا الخلط الكبير فى مفهوم هذا المصطلح الغامض ( الضمير ) فان كثيرا من المنظمات ارتكبت بأسمه ، فبعض البلدان تقتل غيرها بوحشية باسم الضمير الحر .. وبعض الناس يقيمون هذه المباريات الوحشية والعروض اللانسانية ، تحت دعوى المخاطرة والمغامرة وضمير التحضر اللاواعى ولذلك فنحن نسائل : اذا كان الضمير هو الأساس السليم للسلوك الانسانى ، فكيف ترتكب باسمه هذه الفظائع ؟ واذا كان الضمير كافيا لعلم الانسان طريقه الصحيح ، فلم بعث الله بالانبياء مبشرين ومنذرين ؟ فاذا كان مصطلح ( الضمير ) غير صالح ليكون حكما عادلا يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقيا ، فلا بد وأن ندعو الى مصطلح اسلامى بديل .. نستمده من تأمل آيات القرآن الكريم . وهذا المصطلح هو ( الزاجر ) فالزاجر كما ورد فى الآيات البينات ، قوة فى الانسان تحذو به الى مجانبية المعاصى ، وتبتعد به عن كل ما يخالف الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها<sup>(٢)</sup> . ولقوله تعالى :

\* والزاجرات زجرا .. الصادقات/٢

\* ولقد جاءهم من الانبياء ما فيه مردجر .. القمر/٤

فالزاجر واعظ فى القلب يهتف به للسير فى طريق الاستقامة ، ويرشده لسلوك سبيل الحق وينحو به من الأهواء والمعاصى .. ولهذا فنحن نرفض مصطلح الضمير

(١) راجع نحو منهج إسلامى ص ٢٥ وما بعدها

(٢) راجع معنى ( الزاجر ) فى كتابنا الفاظ الصوفية ومعانيها

كما يشتمل عليه من دلالات نفسية وخلقية عامضة . وما اقتصرت به من التماس  
وابتعاد عن الصدق والوضوح ، لتستخدم هذا المصطلح والمفهوم القرآني :  
الزاجر

## ٢- كظم الغيظ . لا الكبت :

يذهب علماء النفس الغربي وعلى رأسهم فرويد إلى تقرير مفهوم للشخصية  
يقول بأن هذه الشخصية الانسانية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد  
الداخلية ( الغرائز ) وبين العالم الخارجى ( الموضوعات )<sup>(١)</sup> ، وخلال هذا  
التفاعل يقوم الفرد باختزان العديد من الخبرات عن طريق « الكبت » ، فيلقى بها  
في مستودع المكبوتات : اللاشعور . وبالرغم من أن النظريات الجديدة في علم  
النفس قد أغفلت تماما الجانب اللاشعورى ، ولم تعد تعترف به . فان مصطلح  
الكبت ظل مستخدما في أعمال العديد من المفكرين المستشرقين مما أدى بهم الى  
الاعتقاد بأن الانسان مغلوب على أمره ، وأن الحتمية النفسية هي قدره المحتوم<sup>(٢)</sup> .

أما المصطلح الاسلامى ، والمفهوم القرآنى الذى نستبدل به مصطلح  
الكبت ، فهو الصبر وكظم الغيظ .. فقد جاء في الآيات الكريمة :

\* واصبر حتى يحكم الله .. يونس/١٠٩

\* ان الله مع الصابرين .. البقرة/١٥٣

\* والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. آل عمران/١٣٤

ومعناك العديد من الآيات القرآنية التى تشكل في مجموعها المفهوم الإسلامى  
للصبر وكظم الغيظ .. حيث تتحلل حقائق الصبر وقدرة الانسان عليه ،  
فالانسان قادر على الصبر وكظم الغيظ ، بالعزم ومخالفة النفس واتباع العقل  
والوسط العدل ، وحين يصبر الانسان ويكظم غيظه ، يكون قادرا على الغضب

(١) فرويد . موجز في التحليل النفسى ص ١٤

(٢) ك هولت . نظريات التخفيف ، ترجمة د أحمد فرج - مراجعة د. مليكة . ص ٢٩-٣٤

والثورة والأذى ، لكنه في موقف اختيار .. فيختار الأفضل والأصلح !<sup>(١)</sup> فهذا يكون الفعل واقعا عن وعي الفرد وإدراكه لثمرة هذا الفعل ، وليس الأمر ناشئا عن الحتمية النفسية التي يقرها علماء النفس الغربيون وعلى رأسهم فرويد . إن الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، وليس موقفا مرضيا أو عصبيا .  
وأخيرا فإن الصبر ليس موقفا سلبيا كالكبت ، فالصابر ليس معلوبا على أمره ، وإنما هو صاحب موقف إيجابي يسمو على الأحداث ، ويرتفع عن الغرائز ، ويرضى بالقضاء ، ويدرك بالعرفة الإيمانية حقيقة الابتلاء .

### ٣- الفطرة .. لا الحتمية :

ظهر مصطلح الحتمية بشكل واضح في علوم الميكانيكا .. ثم انتقل إلى العلوم الإنسانية كالإخلاق ، والتاريخ ، وعلم النفس<sup>(٢)</sup> . وفي علم النفس الغربي ، يخضع السلوك الإنساني لقانون الحتمية الذي يحدد السلوك وفقا للتكوين الطفولي في السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان .. وانتشر هذا المصطلح !  
وإذا مضينا في تأملاتنا للقانون الإلهي ، نستضيء بالمعاني المناسبة<sup>(٣)</sup> والتعابير المتكاملة والألفاظ الصالحة ، وجدنا لفظ ( الفطرة ) كمصطلح ، بدله أفضل وأشمل من مصطلح ( الحتمية ) فهو أصلح في التطبيق ، وأضوح في التعرف على الحقائق ، إذ أن الفطرة موجودة في الإنسان كما هي الناموس الكوني ، فهي تعبير عن الوسط العدل والخير الفاضل .. يقول عز من قائل :

\* فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها .. الزمزم ٢٠

\* وما لي لا أعبد الذي فطرني .. يس/٢٢

\* قل أعير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض .. الأنعام/١٤

هذه الفطرة المشار إليها في الآيات الكريمة ، تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية

(١) نحو صحيح إسلامي ، ص ٢٥٨

(٢) كان بور عمدة لذهب لتاريخي . ترجمه : عبد حميد صبيح . ص ١٣٥

(٣) نحو صحيح إسلامي ، ص ٢١٩

فيما يتعلق بالسلوك الشرى ، فهى لا تلتزم بقواعده التعصبيه التى تمير الانسان على سلوك معين ، بل هى تفتح الباب للانجلاء الى الله والسير على صراطه المستقيم ، فهو تعالى الذى يقبل التوبه عن عباده ، ويجعل منها ميلاذاً جديداً يجب ما قبله ، ليرجع الانسان بعدها الى الجادة والصلاح .. ولهذا كان مصطلح القطرة كبديل لمصطلح الحتمية رجوع الى الحق ، وربط محكم بين علم النفس وبين الدين ، وطريقاً لأثراء أبحاثنا وتقدمها في طريق العلم والحكمة .

#### ٤- الدفع .. لا الصراع :

يعرف فرويد الصراع بأنه : فقدان الشخص الثقة في قدرته على رفع التناقضات بين القصور المؤلم وبين النفس ، مما ينشأ عنه صراع يؤدى الى محاولة استبعاد القصور المؤلم<sup>(١)</sup> .. ثم شاع استخدام مصطلح ( الصراع النفسى ) حتى انتقل الى علم الاجتماع والانحلاق والسياسة .. وأكد أصحاب مدرسة الشخصية بعد انتشار هذا المصطلح ، على أن الصراع النفسى هو المكون الاساسى لبناء شخصية الفرد<sup>(٢)</sup> . لكننا من خلال قول عز من قائل :

\* ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسدت الأرض .. البقرة/ ٢٥١  
 \* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً .. الحج/ ٤٠٠

نقول بأنه لا يوجد هناك صراع بالمعنى العلمى الحديث داخل النفس ، وإنما هناك ذلك ( الدفع ) الذى هو موقف اختياري من الانسان ، فهناك دفع ودفع مقابل ، كما في قول عز من قائل :

\* ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ..  
 فصلت/ ٤١

\* ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون .. المؤمنون/ ٩٦

(١) د. عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ، دار المعارف ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) بارنهيث ملامى عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد ، ص ١٦٥

فالدفع هو المصطلح العلمي الصالح للاستخدام ، فهو مراد بدرجة تسمح له بالانسحاب الى النفس والناس والمجتمع ، بحيث لا يحمل معنى التناقض الموجود في مصطلح الصراع<sup>(١)</sup> .

طه- الرؤية .. لا أضغاث الأحلام :

أهتم علماء النفس المعريون بموضوع الأحلام ، حتى أن فرويد يعتبر الحلم هو الطريق الملكي لمعرفة النشاط اللاشعوري في العقل الانساني ، وأنه لغز مصور كمعنى رمزي<sup>(٢)</sup> .. فالحلم هو نوع من المكبوتات تظهر كمرغبة لم تمنع بعد ، وتنبوع من الإرضاء الخيالي للرأى<sup>(٣)</sup> .. ثم يذهب يورج الى أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية في مقابل الحياة الشعورية التي يحياها الانسان .. وبذهب البعض الآخر الى أن الحلم هو خداع المرء لنفسه<sup>(٤)</sup> .. وهكذا تمضي التأويلات الذاتية الى مالا نهاية .

والحقيقة أن ما يبحث فيه هؤلاء العلماء ليس الا وهم شيطاني لا تفسير له ، كما ورد في الحديث النبوي ( الحلم من الشيطان ) أما المصطلح الاسلامي الذي يبنى لنا بحث آفاقه ، فهو : الرؤية .. فان علم النفس الاسلامي يفصل بين الرؤيا والأحلام في حين يخلط بينهما علم النفس الحديث .

وقد ورد لفظ الرؤية والحلم في الحديث الشريف ( الرؤية من الله والحلم من الشيطان ) كما وردت في القرآن الكريم في قول عز من قائل :

\* يا أيها الملاء اتقوا في رؤياي .. يوسف/٤٣

\* قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. يوسف/٤٤

فهناك اذن فرق شاسع بين الرؤية والحلم .. فهناك الرؤية الصادقة ، وهناك أضغاث الأحلام التي لا يعول عليها ، ويطلق على كليهما لفظ ( منامات ) وقد

(٢) هو علم نفس اسلامي . نحو منهج اسلامي

(٣) فرويد : تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، ص ١٢٩

(٤) اريست جوير : التحليل النفسي ، ترجمة د. الشيباني ، ص ٥٣ .

(١) احمد فؤاد الأعرابي - النوم الارق ص ٩٧ .

قسم الشيخ عبد الغنى التاليسى هذه المقامات الى ثلاثة أقسام : البشرى ، رؤيا  
التحدير ، رؤيا أمانى النفس<sup>(٢)</sup> .

ولما كان المجال يضيق هنا عن استعراض اقسام الرؤية وأشكالها وصلتها بالصحة  
النفسية ، على النحو الذى عرضنا له بشكل مفصل فى كتابنا ( نحو علم نفسى  
اسلامى ) فاننا مكنتى هنا بالاشارة الى أن « الرؤية » التى يمكن تبويبها  
وفهمها ، تختلف تماما عن « الحلم » الذى حاول علم النفس الغربى دراسته ،  
فوقع فيما لا حصر له من الأوهام والظنون .  
خاتمة :

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المصطلحات والمفاهيم القرآنية ، ومقارنتها  
بالمصطلحات السائدة .. انتهى الى القول بأنه من الضلال والاضلال أن نتوهم  
أنا قادرين على اختراع منهج ومفاهيم من غيبات مفترضة ، ونبتدع من خيالاتنا  
مصطلحات غير متحققة ، ونتواضع على أسس وقواعد ذاتية ، نحاول بها أن نفهم  
ونفسر وتنبأ ونحكم على السلوك النفسى ، زاعمين أن ما ابتدعناه كفيل بالوصول  
الى الحق واليقين . ولقد هدانا الله الى تحديد العديد من المصطلحات المستمدة  
من الحقائق القرآنية ، فان كنا قد عرضنا فيما سبق لبعض هذه المصطلحات مما  
يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع ندوتنا اليوم ، فسوف نكتفى بالاشارة الى بعض  
المصطلحات الأخرى .. فنحن نقول ( الاستقامة ) فى مقابل الموضوعية ، و  
( الهدى ) فى مقابل الخلق ، و ( الحكماء ) فى مقابل الفلاسفة ، و ( العبودية  
لله ) فى مقابل مصطلح الحرية ، والتفكير .. لا الفكر ، والتسخير .. لا التبرؤ  
والتحكم ، والبصيرة .. لا الحدس .

وأخيرا .. فان كل ما نزع من مصطلحات وقوانين نفسية بعيدة عن الهدى  
القرآنى ، هو وهم واهم ، وظن الظانين .. وقد قال تعالى ( ان يتبعون الا الظن ،  
وان الظن لا يعنى من الحق شيئا ) ولقد أوصانا الله باتباع حكمة الدين ،

(٢) عبد الغنى التاليسى : تصور الآناه و تبيد النام من ١ ٨

وأوصانا ألا نتبع الأهواء ، وأن لا نطع من أغفل الله قلبه عن الرشدا .. ولهذا كله ، فنحن نقول كلمة حق : لا يمكن لنا فهم حقائق النفس الانسانية الا بتصحيح المفاهيم الأساسية ، ووضع اصطلاحات مناسبة للمدلولات القرآنية ..

وبالله التوفيق .....

أ.د. حسن الشرفاوى

رئيس قسم الفلسفة - كلية الآداب

جامعة الإسكندرية

## المراجع

- ١ — ارستو جونز : التحليل النفسي ، ترجمة د. الشنطي .
- ٢ — أحمد فوزد الأهواني : النوم والأب .
- ٣ — ايزنك : الحقيقة والوهم في علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى .
- ٤ — باتريك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد .
- ٥ — حسن الشرقاوى : التربية النفسية في المذهب الإسلامى .
- ٦ — حسن الشرقاوى : نحو علم نفس اسلامى .
- ٧ — حسن الشرقاوى : نحو منهج اسلامى .
- ٨ — حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة .
- ٩ — حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها .
- ١٠ — حسن الشرقاوى ض الطب النفسى النبوى .
- ١١ — فرويد : الموجز في التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على .
- تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان .
- ١٢ — صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى في الفكر القرويدي .
- ١٣ — سيد غنيم : ميكولوجية الشخصية .
- ١٤ — ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. احمد فرج .
- ١٥ — كارل بوبر : علم المذهب التاريخى ، ترجمة د. عبد الحميد صبره .
- ١٦ — عزت راجح : الأمراض النفسية والعقلية .
- ١٧ — عبد الفتى التابلسى : تعبير الانام في تعبير المنام .